

الفصل الرابع

موقف القبائل اليمنية من الخلاف

السياسي

بين علي ومعاوية

الفصل الرابع

موقف القبائل اليمنية من الخلاف السياسي

بين علي ومعاوية

كان خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يشعل نارها بين علي والعباس، وبين بني هاشم وسائر بطون قريش، وسوس لنصرة بني أمية ونصرة قريش من ورائها، كما وسوس لآخرين يمثل ذلك. وكان يرغب بالواقعة التي يخذلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية.

وقد حسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر والذي كان مشغولاً بدفن الرسول ودعي إلى سقيفة بني ساعدة مرتين ولم يكن يعلم سبب فيم يدعي ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته، حتى همّ عمر بن الخطاب بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن يزيد الخلاف بين الخزرج والأوس (الأنصار)، والمهاجرين (قريش)..

وكان علي في تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الطاهر المسجى في حجرته فدخل عليه أبو سفيان قائلاً: "يا أبا الحسن هذا محمد قد مضى إلى ربه وهذا تراثه لم يخرج عنكم فابسط يدك أبايعك" فرفض، فيقول له عمه العباس: يا ابن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي. وأنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قريشي، وإذا بايعتك

قريش لم يختلف عليك بعدها أحداً من العرب فيجيب علي : - (لا والله ياعم إني لأكره أن أبايع وراء رتاج)^(١) .

إلى أن علي بن أبي طالب قد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاة من بني هاشم، وشيخ الدهاة من بني أمية، لقد تمت البيعة على الوجه الذي عرفه التاريخ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المؤرخين المنصفين في فضل من أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان، وكانت السيدة فاطمة ترى حق علي في الخلافة. أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته، واجتمع في منزل من يناصرها الرأي من الصحابة وتشاوروا فيما بينهم على عدم شق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقض البيعة، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمرأ سمرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسياسة التي بيثها أبو سفيان فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته علي وعلي ويتحفز للوقعية فصده علي وقال له إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه (فلما يئس من هذا طرق باباً آخر لعله يدخل منه إلى مأربه، وذهب إلى العباس يقول له : (أمدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم) ثم يقول : أنك والله لأحق بميراث ابن أخيك) فيرده العباس كما رده علي، وجاءت قضية (فدك) وهي قرية كان النبي يقسم فيثها بين آل بيته وفقراء المسلمين، فلما توفى الرسول بعثت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خيبر فقال أبو بكر (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم) كان يقول إننا معشر الأنبياء لا نورث. وما تركناه صدقة. وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها). ويقال إن فاطمة

(١) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٥٥ .

الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه زكريا (يرثني ويرث من آل يعقوب) وقوله تعالى (وورث سليمان داود) ^(١) .

لكن أبا بكر الصديق قال لها يا بنت رسول الله أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لي بجوابك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبا الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت وأنبأني بما أخذت وتركت ^(٢) .

والحديث في هذه المسألة لا تنتهي إلى منتهى القول ... اتفقت الآراء السياسية للمؤرخين، عن العصر الإسلامي الأول على القول إن الركنتين الأساسيين الضروريين لبناء الدولة والحفاظ عليهما : الجند والمال، وعبرة (الملك بالجند والجند بالمال تتكرر في تلك المؤلفات كإحدى بديهيات الفكر السياسي.. والدعوة المحمدية، قد تحولت إلى دولة، عندما غدا في إمكانها تجنيد الرجال والحصول على المال، وكان ذلك بعد الهجرة إلى المدينة، كان المهاجرون والأنصار هم الجند وكانت مساهمتهم التطوعية أولاً ثم الغنائم التي كانوا يستولون عليها من عدوهم ثانياً، كل ذلك كان مصدر المال الذي كانوا يتجهزون به ^(٣) .

ويرى الجابري : إن إسلام القبائل إسلاماً سياسياً وهو اعتراف بزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت الزكاة في منظور هذه القبائل هي نفس (الإتاوة) التي كان العمل جارياً بها قبل الإسلام وهو المقدار من المال

(١) نفس المرجع ص ٥٦ .

(٢) العقاد مرجع سابق ص ٥٦ .

(٣) د / محمد عابد الجابري : نقد العقل العربي (٣) العقل السياسي العربي، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط ٣، ١٩٩٥م ص ١٦٥ .

الذي تأخذه قهراً القبيلة المنتصرة من القبيلة المنهزمة ، كانت الإتاوة عبارة عن ضريبة تدفعها القبيلة ما دام ميزان القوى يفرضه عليها ذلك وبمجرد تغيير ميزان القوى تسارع القبيلة للامتناع عن دفعها.. ولعل ذلك ما كان يضايق تلك القبائل التي رفضت أن تدفع الزكاة لأن ذلك في نظرها رمزا للخضوع والمهانة ، لقد كانت الإتاوة هي الشيء الوحيد الملموس الذي يحصل به التمييز في المجتمع القبلي بين القبيلة السيدة صاحب الملك والقبائل المسودة^(١).

وتجمع المصادر على أن أبا بكر الصديق كان يوزع في الحين ما يرد عليه من أموال الغنائم (فلا يبقى في بيت المال شيء) وكان يسوي في قسمته بين الناس السابقين منهم والمتأخرين في الإسلام ، بين الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، وكان يشتري الألبسة ويفرقها في الأرامل في الشتاء.. ولما توفي الصديق ، جمع عمر بن الخطاب الأماء وفتح بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار فقط سقط من غرارة^(٢).

كان بيت المال يعتمد في ماليته على ما يؤخذ من العدو وحين الغزو بدون قتال وهو الفئ ، أو بقتال وهو الغنيمة ، أما الزكاة فمقدارها قليل وهي للفقراء والمساكين خاصة.. ثم أصبح لبيت المال موردان اقتصاديان ثابتان هما اقتصاد الغنيمة ، الذي يقوم على أمرين اثنين (الخراج) وضمنه الجزية من جهة.. والعطاء من جهة أخرى (الناس كلهم عيال على الخراج وأهله) وهو جوهر الاقتصاد (الريعي) وكان يقوم على (التفضيل) وليس على التسوية ، وترتيب الناس في العطاء حسب القرابة من الرسول والسابقة

(١) نفس المرجع : ص ١٦٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٢، ص ٢٩٠.

في الإسلام.. مما أوجد نوعاً من اليسار ، أو تكديس الثروة في أيدي مجموعة معينة ، وبالتالي كان لا بد من أن يورث فوارق كبيرة بين المسلمين في الثروة تتسع باتساع حجم الغنائم والخراج.. وكان الخليفة الثاني عمر قد لاحظ هذه الظاهرة أذ ينسب إليه أنه قال آخر أيامه (إني كنت قد تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس فلم أفضّل أحمر على أسود ولا عريباً على أعجمي ، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر) ^(١) .

إلا أن عمر بن الخطاب عمل على اتخاذ جملة من التدابير (الوقائية) لمنع توظيف الثروة (ثروة العطاء) في إنتاج مزيد من الثروة.. وهكذا نلاحظ أن ابن الخطاب قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من المدينة المنورة ، إلى أقاليم (البصرة) والكوفة والشام ، إلا بإذن وزمن محدد ، فشكوه فبلغه ، فقام فقال : إلا إني قد سننت الإسلام سن البعير (قارنت تطوره بمراحل البعير) يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سداسياً ثم بازلاً (في التاسعة) ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا فإن الإسلام قد بزل. ألا وإن قريش يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة أما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلّاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار ^(٢) .

وكان قد شدد على المهاجرين بوجه خاص باعتبارهم من أبناء قريش ومنعهم من الخروج من المدينة المنورة وإذا استأذنه أحدهم بالمشاركة في الغزو ، ليتمكن من مغادرة المدينة ، قال له : (قد كان في غزوك مع

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) تاريخ الطبري : تاريخ الأمم والملوك : ج ٢ ، ص ٦٧٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يبلغك، أي ما يكفيك كسابقة في الإسلام، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك^(١).

كما لجأ عمر إلى مشاطرة أموال عماله، يأخذ نصف أموالهم، وشاطر أبي هريرة رضي الله عنه وقال له من أين لك هذا المال؟ فقال له أبو هريرة: (دواب تتأتجت وتجارات تداولت). فقال "عمر" إذن الشطر. وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قدم عليه العمال يأمرهم أن يدخلوا نهراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحجبوا شيئاً من الأموال^(٢).

وتشير المصادر أيضاً إلى أن عمر بن الخطاب منع الفاتحين من اقتناء الضياع والاشتغال بالزراعة حتى يضمن بقاءهم جنوداً مستعدين للغزو، وكان ينهاهم عن التطاول بالبناء، ويحكي أنه بلغه أن سعد بن أبي وقاص اتخذ قصراً بالكوفة وجعل عليه باباً.. وقال: انقطع الصوت، فأرسل عمر رضي الله عنه محمد بن مسلمة فقال له ائت سعداً فأحرق عليه بابه ففعل^(٣).

لذلك يقال (لم يمت عمر حتى ملته قريش.. والسؤال المطروح هو هل كانت قريش وراء خنجر قاتله أي أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وذلك لخلو المصادر التاريخية بمختلف مشاربها، عما يمكن أن يزكي مثل هذا

(١) نفس المرجع ص ١٧٩.

(٢) أبو بكر / محمد بن الوليد الطرطوشي: سراج الملوك، الإسكندرية: المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) نفس المرجع: ص ٢٤٣.

الافتراض. وذلك حينما فضل أغلبية الناس من قريش، عثمان بن عفان على علي بن أبي طالب في عملية الشورى.

كان عثمان بن عفان غنياً، ولم يكن حديث عهد بالغنى والثروة، بل كان ذا مال، منذ ما قبل الإسلام، وساهم مساهمة كبيرة في النفقة في (سبيل الله) زمن الدعوة المحمدية. وعندما اغتيل الخليفة عمر بن الخطاب كان من أكبر الصحابة سناً، إذ بويع وعمره يناهز السبعين عاماً. وكان معروفاً بلينه وكرمه ودماثة خلقه، ثم إنه من عائلة كبيرة من بني أمية، وقد فضله أهل الحل والعقد، وفي مقدمتهم أصحاب الأموال مثل (عبد الرحمن بن عوف) و (الزبير بن العوام) و (طلحة)، وفضلوه على علي بن أبي طالب الذي كان شاباً متشجعاً زاهداً في المال، يفرق ما يناله منه على الفقراء. وضعاف الناس، فكان (صديق المساكين) يلتف حوله قدماء المتسضعفون، والمستضعفين الجدد.

ويشير ابن قتيبة "أن ما أن ولي عثمان "حتى بدأت مظاهر الغنى في الانفجار) وسرعان ما استفحلت حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف دينار، والنخلة الواحدة بألف"^(١).

ويشير الطبري^(٢)، على أن أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات (بندق يرمى به الطير)، وحدث أن انتشر بين الناس النشو (السكر). وزاد في انفجار الترف تزايد حجم المال المتدفق على (المركز) خاصة من الخروج فعندما

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج ١ ص ٢٧.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢، ص ٦٨٠.

فتح المسلمون العراق التي كانت تحت النفوذ الفارسي سقطت إيوان كسرى بيد المسلمين، وأخرجوا من خزائن كسرى مائتي ألف بدرية في كل بدرية أربعة آلاف (البدرية كيس من جلد تحفظ فيه النقود) أي ما مجموعه (٨٠٠ مليون دينار) ^(١) كما بلغت جباية مصر وحدها (١١٢) مليون دينار ^(٢).

أما غنائم أفريقيا فقد كان سهم الجندي (= الراجل الذي لا يمتلك بغيراً أو فرساً) ألف دينار، وقيل بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وكان مجمل عدد الجيش العربي عشرون ألفاً. وتشير بعض المصادر ^(٣)، أن المسلمين صالحوا بطريق أفريقية بمليونين ونصف مليون دينار. وكان ذلك ثلاثمائة قنطار من الذهب. وكان نصيب كل فارس منها ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب، وكان الخمس الذي أرسل إلى العاصمة إلى الخليفة عثمان يبلغ (٥٠٠) ألف دينار أعطى منها عثمان مائة ألف دينار (الخمس) لأبن أبي سرح قائد الحملة وكان من أقاربه.

وكثر الخراج على عثمان وأتاه المال من كل وجه له الخزائن وأدار الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرية في كل بدرية أربعة آلاف أوقية، وصار عثمان ينفق من (بيت المال) يعطي أقاربه وغيرهم، وكأنه يتصرف في ماله، ويقال إنه أعطى للحكم بن أبي العاص بن أمية (طريد

(١) شمس الدين محمد بن محمد بن عثمان الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٣٣١: نقلاً عن د / محمد الجابري: مرجع سابق ص ١٨٢.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١٥.

(٣) الطبري: مرجع سابق، ج ٢ ص ٥٩٨ - ٥٩٩.

رسول الله) مائة ألف وابنه مروان خمس غنائم إفريقية، من الخمس المخصص (لذوي القربى).

وروي أن والي الكوفة الوليد بن عتبة أخا عثمان لأمه أقترض من بيت المال مبلغاً ولم يسدده، فتقدم إليه عبدالله بن مسعود عامل بيت المال يطلب منه سداذه، فمأطل فاشتكاها إلى عثمان فأجابه هذا الأخير قائلاً: (إنما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما أخذه من مال).. فاستقال ابن مسعود وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك.. كذلك سمع عثمان بالخروج من المدينة لأولئك الذين كان عمر بن الخطاب قد حبسهم فيها من كبار الأغنياء، وترك الناس يمارسون التجارة بطرق مختلفة وقام هو بنفسه بإقرار تدبير فتح الباب لأنواع من الاتجار والمضاربة (في أسهم) المقاتلين وأعطياتهم. وبدأت مظاهر الاستياء والتذمر داخل مجتمع المدينة. فجمعهم عثمان وخطب فيهم فقال :-

(يا أهل المدينة، إن الناس يتمخضون بالفتنة، وإنني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك، فهل ترونه ؟ حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده.) وتضيف الرواية أن المستمعين وافقوا وقالوا : " كيف تنقل إلينا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : (نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز) ففرح القوم (فافترق القوم وقد فرجها الله عنهم) ^(١) .

وخلاصة القول إن الذين شاركوا في القتال في العراق، ورجبوا العودة إلى المدينة كانت الضرورة تقتضي بيع ممتلكاتهم مما اشتروه هناك من

(١) نفس المرجع ص ٦١٤ نقلاً عن د / محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص ١٨٣ .

عقار وغيره لمن رغب بالبقاء هناك، وكان الذي يقوم بالبيع هم الضعفاء. والذين يقومون بالشراء هم الأغنياء الذين استمروا البقاء هناك.. وكان من نتائج هذه التدابير أن تركزت ثروات هائلة في أيدي جماعة قليلة من الصحابة ورجال قريش فاتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء وزاد في اتساعها توقف الفتح وتكاثر النسل وهجرة الأعراب إلى الأمصار.

الكل في المجتمع "الناس فيه عيال على الخراج وأهله" إنه وضع يهدد بالانفجار. لقد أوجد الخليفة عمر بن الخطاب، طريقة جديدة وهي أهل "الشورى"، وبعد أن صار الحكم لعثمان أصبح بقية أهل الشورى خصوصاً منهم طلحة والزبير وعلي بن أبي طالب، رموزاً تستقطب قوى المعارضة في العاصمة - المدينة المنورة - ضد عثمان وبني أمية. وكانت العلاقة بين هذه الشخصيات تقوم على المنافسة، إلا أن علي بن أبي طالب لم يكن من أصحاب المال من جهة. وللتنافس بين طلحة والزبير في مجال المال والتجارة من جهة أخرى.. ونتج عن ذلك وضع سياسي "مريض" استمر نحو خمس سنوات، ومن المآخذ على عثمان، عزله للعمال تلبية لرغبة هذا الجانب أو ذاك، اعترافه بالخطأ وإعلان توبته، ضعفه أمام منافسيه، الزبير وطلحة وعلي.

وكان الزبير قد اقتنى ثروة ضخمة منها أنه بنى داراً بالبصرة، فينزل بها التجار من البحرين وغيرهم، وكان له دار أيضاً "بمصر"، والكوفة، والإسكندرية، وكان له ضياع أخرى ودور غير معلومة وبلغت ثروته بعد وفاته خمسين ألف دينار، وألف فرس، وألف عبد وأمة^(١).

(١) أبو الحسن بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، بيروت، دار الفكر ط٥، ١٩٧٣م، ص٣٤٢.

أما ثروة طلحة بن عبيد الله التيمي فقد تمثلت ببنائه دار بالكوفة التي كانت تسمى بدار الطلحيين، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، كما كان له دار بالمدينة المنورة مبنية بالآجر والجص والساج^(١).

أما بقية الصحابة فقد أثروا من الفتوحات والاقطاعات التي تميزوا بالحصول عليها.. وكان الخليفة عمر قد ألزم القادة القرشيين بالبقاء بالمدينة المنورة ومنعوا من الخروج حتى جاء الخليفة عثمان بن عفان وسمح لهم بالخروج والعمل بالتجارة.. فزادت أموالهم سعة وطمح بعضهم بالسلطة. وباختيار عثمان ابن عفان خليفة للمسلمين قدم عليه عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية - والحكم هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غربه عن المدينة، ونفاه عن جواره-. وعندما بدأ بتشكيل حكومته بدأ بأهله ومنحهم مناصب لا يستحقونها ومنهم الوليد بن عقبة ابن أبي معيط الذي عين والياً على الكوفة وهو ممن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار^(٢). وشكاه أهل الكوفة بأنه يشرب الخمر جهاراً مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح [فلما أذن المؤذن بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربعاً، وقال أتريدون أن أزيدكم؟ فقال له من كان

(١) أبو الحسين المسعودي : مروج الذهب , معادن الجواهر، جـ ٢، بيروت، دار الفكر طه؛

١٩٧٣م، ص ٣٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤٤.

خلفه في الصف الأول : (والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً^(١)).

(١) نفس المرجع : ص ٣٤٤. "وأشاعوا بالكوفة فعله، وظهر فسقه ومداومته على شرب الخمر فهجم عليه جماعة من المسجد، منهم أبو زينب بن عوف الأزدي، وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما، فوجدوه سكران مضطجعا على سريره لا يعقل، فايقظوه من رقدته، فلم يستيقظ ثم تقيأ عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفان فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان : وما يدريكما أنه شرب خمرا ؟ فقالا : هي الخمر التي كنا نشرها في الجاهلية، وأخرجنا خاتمه فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع في صدورهما، وقال : تنحيا عني، فخرجنا من عنده وأتينا علي بن أبي طالب وأخبراه بالقصة، فأتي عثمان وهو يقول : دفعت الشهود، وأبطلت الحدود، فقال له عثمان : فما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره، فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرا عن نفسه بحجة، أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى علي، فقال علي لابنه الحسن : قم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه فقال يكفيني بعض من ترى، فلما نظر اقتناع الجماعة من إقامة الحد عليه ترقيا لغضب عثمان لقرابته منه أخذ علي السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه سبه الوليد، وقال : يا صاحب مكس، فقال عقيل بن أبي طالب وكان ممن حضر ! إنك لتتكلم يا ابن أبي معيط كأنك لا تدري من أنت، وأنت علي من أهل صفورية - وهي قرية بين عكا واللجون، من أعمال الأردن، من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً منها - فأقبل الوليد يروغ من علي فاجتذبه علي فضرب به الأرض وعلاه بالسوط، فقال عثمان : ليس لك أن تفعل به هذا، قال بل وشرأ من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه

ص ٣٤٥.

انظر أيضاً ابن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية، مج ٣، ط ١٩٧٧، ١، ص ٢٩ ص ٣٠.

وفي عام ٣٣هـ بدأت تتشكل قوى المعارضة ضد الخليفة عثمان، فبعد إقالة الوليد بن عقبة من عمله، كلف سعيد بن العاص بدلاً عنه، واختار وجوه الناس، وأهل القادسية، وقراء أهل الكوفة، ليكونوا جلساء، ولكن سياسته هذه لم تفلح حيث تجاذبت الناس ذكر من أتوا إلى الكوفة فقراء وأضحوا أغنياء^(١).

ويذكر "الطبري" أنه لم تمض سنة عن خلافة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وعلى رأسهم طلحة والزبير، وانقطع الناس إليهم وتبقوا سبع سنين "الأولى من خلافة عثمان والتي لم تظهر الانتقادات ضده. كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم فاستطالوا عمر وعثمان "ولما كانت للزبير وطلحة أملاك وضيعات ونفوذ في كل من الكوفة والبصرة فقد استقطب كل منهما المعارضة المحلية في المدينة التي كان فيها أملاك ومماليك ونفوذ وهكذا.. "وكان هوى أهل البصرة مع طلحة، وهوى أهل الكوفة مع الزبير".

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠ - ص ٣١.. ويقول ابن الأثير، أن هؤلاء الجلساء دخلوا على سعيد بن العاص يوماً فينما هم يتحدثون قال حبيش بن فلان الأسدي: ما أجود طلحة بن عبيد الله.. فقال سعيد: "إن من له مثل النشاستج - ضيعة في الكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله التيمي - لحقيق أن يكون جواداً، والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رغداً" فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث.. والله لوددت أن هذا الملطاط لك - يعني سعيد - وهو ما كان للأكاسرة على جانب الفرات الذي يلي الكوفة.. فثار به الأشر، وجندب وابن ذي الحنكة، وصعصعة، وابن الكواء وكميل، وعمير بن ضائب، فأخذوه فثار أبوه ليمنع عنه فضربوهما حتى غشي عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبون حتى قضوا منهما وطراً.. فسمعت بذلك بنوا أسد فجاءوا وفيهم طلحة فأحاطوا بالقصر، فخرج سعيد إلى الناس فقال: أيها الناس قوم تنازعوا وقد رزق الله العافية، فردهم فتراجعوا وأفاق الرجلان.. فقالوا: قاتلنا غاشيتك. فقال: "لا يغشوني أبداً، فكفا ألسنتكما ولا تحزبا بالناس" ففعلا وقعد أولئك نفر في بيوتهم، وأقبلوا يقعون في عثمان".

ويشير "ابن الأثير"^(١) إلى أنه في عام ٣٤هـ عظم الناس على عثمان ونالوا منه "ويبدو أن شدة ابن الخطاب، أظهرت عثمان على غير ما ألفه الناس"^(٢).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ص ٤٣. ويضيف المرجع إلى أن الصحابة لم يحركوا ساكناً تجاه عثمان إلا نفر منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس وأخبروا علي بن أبي طالب فدخل علي على عثمان فقال له : "الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، ولا أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر تعرفه.. وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بالعمل منك بالحق، ولا ابن الخطاب بأولى بشئ من الخير منك، وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالاه، وما سبقاك إلى شئ فأن الله في نفسك... وإن السنن القائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمّام جائر ضل، وأضل فألمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة... وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقي في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم" وإني أحذرك الله وسطواته ونقماته فإن عذابه شديد أليم.. فقال عثمان : قد علمت والله ليقولن الذي قلت أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتكم، ولا عبت عليك، ولا جئت منكراً إن وصلت رحماً.. أنشدك الله يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم. قال: فتعلم أن عمر ولاة ؟ قال نعم، قال فلم تلومني إن وليت ابن عامر في رحمة وقربته ؟ قال علي : إن عمر كان يطاء على ضماح من ولي إن بلغه عنه حرف جلبة ثم بلغ به أقصى العقوبة، وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقربائك.. فقال عثمان : هل تعلم أن عمر ولي معاوية ؟ فقد وليته، فقال علي : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من "يرفا" غلام عمر له ؟ قال نعم، قال علي : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك، ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك.

ثم خرج علي من عنده وخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، ومما قاله : "ألا فقد والله عبت علي ما أقرتم لابن الخطاب بمثلته ولكنه وطأكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فدنتم له علي ما أحببتم وكرهتكم، ولنت لكم وأوطأتكم كنفتي، وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي، أما والله لأنأ أعز نفراً، وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً.. إن قلت هلم أتى إلي، ولقد عددت لكم أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً"، ص ٤٤.

(٢) تشير "بوجينا غيانة شتيجنسكا : تاريخ التشريع الإسلامي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط ٢، ١٩٨٣، ص ٨٥، إلى أنه لما توفي عمر بن الخطاب، شاعت الأخبار أن لأبي لؤلؤة القاتل الفعلي لعمر شركاء في قتله منهم الهرمزان وجفينة، وكان الهرمزان من أبناء منطقة الحيرة، أحضره سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم الناس الكتابة، فأسرع عبيد الله بن عمر، وأمستك بالسيف وقتل الهرمزان وأراد أن يقتل جفينة، فأخذوه وسجنوه واستشار عثمان الصحابة في ذلك فبعضهم أشار بقتله قصاصاً وبعضهم قال : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فقال عثمان : أنا ولي المسلمين اليوم قد جعلتها دية، واحتملتها من مالي، وكان ذلك حلاً حسناً لتلك القضية.."

لقد انكر علي بن أبي طالب وطلحة والزبير على عثمان في إيثار قرابته وضعفه أمام العمال من أقربائه.. وسمح عثمان للمهاجرين بالإقامة في البلاد المفتوحة وامتلاكهم الأراضي بتلك البلاد وأصبح عدد كبير منهم من كبار الأثرياء، مما أدى إلى تدمير العرب الذين كانوا يقيمون في الأمصار.. وازداد سخطهم على عثمان وولاته لحرمانهم من أموال الفيء والغنائم، وطالبوا الخليفة بالأعطى من الفيء إلا الذين قاتلوا عليه. كما حقدوا على قريش عامة وبني أمية خاصة لاعتقادهم أنهم اغتصبوا حقوقهم، وتجلت مظاهر هذا السخط في الكوفة في عهد ولاية سعيد بن العاص.

ولم يتخرج كثير من الناس في الأطراف الإسلامية عن عدم ارتياحهم لسياسة عثمان ومواجهته بالمعارضة. ومن الشخصيات التي أثارت روح السخط هو : " عبد الله بن سبأ " الذي عرف بابن السوداء - كان يهودياً من أهل صنعاء - وكان قد اعتنق الإسلام في عهد عثمان، ويبدو أنه اعتنق الإسلام ليكون له شرعية الاعتراض، وإقامة الفتنة بين الناس ضد الخليفة عثمان ابتداءً ... لذلك فقد تنقل في الأمصار محاولاً إثارة الناس ضد الخليفة عثمان. وفي البصرة تأثر بدعوته كثير من العامة.. فلما رفع أمره إلى عبد الله بن عامر أخرجه منها.. فرحل إلى الكوفة يبث دعوته حيث تقاوم الاستياء بين الناس من عثمان وواليه.. ثم طرد ابن سبأ من الكوفة، فقصد الشام.. لكن معاوية ما لبث أن وقف على حركاته، فأمره بالرحيل عنها، فتوجه نحو مصر، حيث وجد أرضاً خصبة لنشر دعوته، وصار يرسل منها رسله وكتبه إلى أشياعه في البصرة والكوفة، وكان يتحدث إلى الناس بأن لكل نبي وصياً، وأن علياً وصي محمد،

وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم الأنبياء، وبذلك هياً العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي وصي رسول الله، ثم عمد إلى إثارة الناس على عثمان وعلى ولاته بقوله : (إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر^(١)).

ومع أن علي بن أبي طالب، كان يعي مركزه هذا ويتصرف على هذا الأساس، لذلك كانت معارضته لعثمان يشوبها نوع من التردد، أما طلحة والزبير، فقد كانا المحركين للثورة على عثمان، وكانا من وراء الرسالة التي بعثت إلى الأمصار، باسم الصحابة تدعوا المجاهدين إلى القدوم إلى المدينة، وجاء فيها : (من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين وبعد، فإن كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت وأحكام الخليفة قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان ألا أقبل علينا وأخذ الحق لنا وأعطاناه فأقبلوا إلينا.. غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا وحيل بيننا وبين أمرنا) وواجه الأشتر النخعي زعيم ثوار الكوفة طلحة بالرسالة فلم ينكر، وكان يحرض الفريقين.. أهل الكوفة وأهل البصرة جميعها على عثمان^(٢).

ولما وصل ابن سبأ إلى الشام لقي أبا ذر الغفاري، فقال : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية (يقول المال مال الله إلا أن كل شيء لله كأنه يريد أن

(١) الطبري مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٧٨ - ص ٣٧٩.

(٢) المرجع نفسه .

يحتجهم دون المسلمين ويمحو باسم المسلمين)، وكان معاوية آنذاك عاملاً لعثمان على الشام، فأتاه أبو ذر وقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : (يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره، قال : فلا تقله.. قال :فإني لا أقول إنه ليس مال الله ولكني سأقول مال المسلمين). أما ابن سبأ فقد أخرج من بلاد الشام وتوجه نحو مصر، فاستوطنها، وبدأ يدلي برأيه في مسألة الوصاية والرجعة ووجد له مستمعين يصغون إليه.. فقال لهم لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمد يرجع، وقد قال الله عز وجل (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ^(١) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال : فقليل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء. ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر. فكاتب أنصاره في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، حتى تناولوا المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون) ^(٢).

(١) سورة القصص : آية (٨٥) .

(٢) الطبري : مرجع سابق ج ٢ ص ٦٤٧.

ونحن لا نستبعد الدور الذي لعبه ابن سبأ ، حيث انجر إلى نفس طرح الآخرين ، مثل كعب الأحبار وهو يهودي من اليمن أيضاً وكذلك وهب بن منبه ، وهو يمني من أصل فارسي في نشر الإسرائيليات ، في أواسط الصحابة والعامة.. وقد روى عنهما ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما ، وكان من جملة الإسرائيليات ، القول بالرجعة والوصية والمهدي..

ونخلص إلى النتيجة التالية : وهي أن عبد الله بن سبأ شخصية حقيقية ، وهو يهودي من اليمن أسلم في العام السابع لخلافة عثمان _ نشر فكرة (الوصي) وعندما قتل علي نشر فكرة (الرجعة ، والوصية) وكانت المعارضة بشكل عام تمارس حقها في النقد ، فعندما كان معاوية والياً على الشام كان عبادة بن الصامت الأنصاري - أحد النقباء ليلة العقبة و شهد بدرأ وولي قضاء فلسطين وسكن الشام كان يقوم بحملة ضد أنواع من البيوع كان يلبسها الربا ويذكر للناس حديثاً نبوياً يقول (الذهب بالذهب مثلاً بمثل وسواء بسواء وزنا بوزن يداً بيد. فما زاد فهو ربا والحنطة بالحنطة قفيزاً بقفيز يداً بيد فما زاد فهو ربا). مستكراً بذلك بيع الذهب بأكثر من وزنه فاستدعاه معاوية وسأله عن هذا الحديث فأكد له أنه سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فقال معاوية اسكت عن هذا الحديث ولا تذكره ، فقال له : بلى وإن رغم أنف معاوية ، ثم قام فقال معاوية ما نجد شيئاً أبلغ فيما بيني وبين أصحاب محمد من الصفح عنهم^(١). وقام معاوية بإرسال عبادة بن الصامت إلى المدينة بناء على طلب الخليفة عثمان بن عفان بعد أن شكاه إليه معاوية .

(١) أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، هذبه ورتبه عبد القادر بدران ، ط ٢ ج ٧ (بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩) ج ٧ ص ٢١٥ .

أما أبو ذر الغفاري في هذا المجال، وكان بالشام يقوم بحملة ضد معاوية، من ذلك أن معاوية بنى دار الخضراء فذهب إليه أبو ذر وقاله له : (يا معاوية يقول إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة وإن كانت من مالك فهذا الإسراف) وكان أبو ذر الغفاري يقول والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها.. والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه والله إنني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحياُ وصادقاً يكذب.. فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية إن أبا ذر يفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية "أما بعد فاحمل جندياً - اسم أبي ذر - إلي على أغلظ مركب وأوعره. فوجه معاوية من سارية الليل والنهار.. فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول لعثمان تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى وتقرب الطلقاء، فنفاه عثمان إلى الريدة خارج المدينة فلم يزل بها حتى مات.

وكان عمار بن ياسر أيضاً أحد أبرز المعارضين، وكان رجلاً حركياً صدامياً، تنسب الروايات إليه دوراً رئيسياً في تحريك الثورة ضد عثمان، من ذلك ما يذكره المؤرخون : (من أنه اجتمع أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة صاحبيه، ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان.. وكان ممن حضر الاجتماع، عمار

بن ياسر^(١) والمقداد بن الأسود، وكانوا عشرة فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار.. وهناك تركوا عماراً يواجه الموقف لوحده وهربوا فمضى حتى جاء عثمان، فاستأذن عليه فأذن له في يوم شات فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم، وأهله من بني أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال نعم : قال ومن كان معك ؟ قال كان معي نفرأ تفرقوا فرقاً منك. قال من هم ؟ قال لا أخبرك بهم قال : فلم اجترأت علي من بينهم ؟ فقال مروان يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (عمار) قد جرأ عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه، قال عثمان اضربوه فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه فغشي عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار، فأمرت به أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم - وكانت من بني مخزوم وعمار حليف هذه القبيلة، وغضب فيه بنو المغيرة - المخزوميون - وكان حليفهم فلما خرج عثمان لصلاة الظهر عرض له هشام بن الوليد بن المغيرة فقال : أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لأقتلن به رجلاً عظيماً من بني أمية).

(١) خرج ياسر بن عامر والد عمار من بلدة في اليمن يطلب أخاً له ويبحث عنه.. وفي مكة طاب له المقام فاستوطنها محالفاً أبا حذيفة بن المغيرة.. وزوجه أبو حذيفة إحدى إمائته (سمية بنت الخياط) ومنها ولد عمار تحت سقف بني حذيفة، وكان أحد الذين استجابوا للدعوة الإسلامية، ونتيجة لذلك أوكل تعذيبهم إلى بني مخزوم - ياسر وسمية وعمار واستشهد والداه وعاش عمار مناهضاً للباطل.. وحين وقع سوء تفاهم بينه وبين خالد بن الوليد قال الرسول الكريم (من عادى عماراً عاداه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله..) انظر خالد محمد خالد رجال حول الرسول، ط ٢ ١٩٧٣ ص ٢٦٥.

وسمع عثمان أن معارضيه يأخذون عليه أنه يفضل أقاربه فيعين العمال والولاة منهم فدعا ناساً من الصحابة فيهم عمار. فقال لهم. إني سائلكم وأحب أن تصدقوني : نشدتكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش ؟ فسكتوا، فقال: لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها لبني أمية حتى يدخلوها^(١).

وعندما طلب منه الثوار أن يعزل عماله ويولي عليهم (من ولا يتهم في دمائهم وأموالهم) رد عليهم قائلاً: (ما أراني إذاً في شيء إن كنت استعمل من هو يتم وأعزل من كرهتم، الأمر إذن أمركم). قالوا : والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر في نفسك أو دع) فأبى عليهم وقال : (لم أكن لأخلع سريالاً سربلنيه الله). وفي رواية أخرى^(٢) قال : (والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أخلع قميصاً قمصنيه الله وأترك أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وبعضها على بعض).

واجتمع قوى المعارضة وعزموا على القيام بأول انقلاب في تاريخ الدولة الإسلامية، ودخلوا المدينة (العاصمة)، ولما علم الخليفة بمقدمهم بعث إليهم يسألهم عن سبب مقدمهم وما هي مطالبهم.. فعاد رسوله يحمل^٣ إليه نبأ طلبهم ويتمثل بالآتي:

بأن يقوم الخليفة بعزل نفسه عن الخلافة وإلا سوف يعرض نفسه للقتل.. فاستشار عثمان مستشاريه. فأشاروا عليه بوأد الفتنة بالقوة، فقال لهم : بل نغزو عنهم ولا نؤذي أحداً فتركهم وعادوا إلى أوطانهم.. وفي

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، مرجع سابق ج ٧ ص ١٧٨ .

(٢) الطبري تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٦٦٤ .

شوال عام ٣٥هـ أقبل إلى المدينة الجماعة المعارضة من مصر ومن الكوفة والبصرة، وأظهروا أنهم يريدون الحج حتى لا يتعرض أحد لهم.. ولما قربوا من المدينة دخلوها على غفلة من أهلها وحاصروا دار الخليفة عثمان^(١).
لم يزد هذا الحصار في بادئ الأمر الإحاطة بداره، وكان الخليفة حراً لحركة يخرج من داره ويصلى بالناس ويسعى الرسل بينه وبين المحيطين بداره. وكان الغرض من هذه الحصار هو إجبار الخليفة على تقديم استقالته من الخلافة. إلا أنه رفض التنازل عن الخلافة وقال (لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل وأكرمني به وخصني به على غيري ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون).
ويشير بعض المؤرخين الباحثين^(٢) إلى أنه ليس من شك في أنه كان بين أهل المدينة من عمل على تشجيع هؤلاء الثوار ونصرتهم ثم انضموا إلى

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج ١، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ص ٣٩.
يشير إلى أن أهل مصر جاءوا إلى المدينة يشكون ابن أبي سرح عاملهم، فكتب إليه الخليفة عثمان كتاباً يتهدده فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان وضرب بعض من أتاه به من قبل الخليفة من أهل مصر حتى قتله، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فتلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. في موافقة الصلاة ما صنع بهم ابن أبي سرح، فبعثت عائشة إلى عثمان برسالة تقول له : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألك عزل هذا الرجل فأبيت إلا واحدة، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك. فأرسل (محمد بن أبي بكر) واليا على مصر وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار، ينظرون فيما بين ابن أبي سرح، وأهل مصر، وبينما هم على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخطب البعير، كأنه رجل يطلب أو يطلب، فقال له أصحاب محمد بن أبي بكر ما قصتك. فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر فقال له رجل : هذا عامل مصر معنا قال : ليس هذا أريد، فأخبر محمد بأمره فأرسل إليه وقال له غلام من أنت ؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام مروان ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين، حتى عرفه رجل أنه لعثمان، وطلب منه الرسالة حتى أجبروه على تسليمها وفك محمد بن أبي بكر ومعه رفاقه المهاجرون والأنصار، فإذا فيه : (إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معهم فاقتلهم وأبطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأيي) فعادوا إلى المدينة غاضبين.. وعرض الكتاب على جمع من الصحابة، فحنقوا على عثمان..

(٢) د / محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص ٦٦.

المحاصرين أثناء حصارهم لدار عثمان، واشتد التوتر داخل المدينة، وعلم المحاصرون لعثمان أن جنداً من الشام قد اقتربوا من المدينة دعماً للخليفة.. وكان عثمان قد كتب إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام يقول له في كتابه : (... إن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام).. كما بعث إلى عبدالله بن عامر بالبصرة نسخة من هذا الكتاب.

وعندما وصلت أخبار المد العسكري القادم إلى المدينة، شددوا الحصار على عثمان وساءت معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاة في مسجد النبي، وحالوا دون وصول الماء إليه، إلا ما وصل إليه خفية. وقد قيل إن الحصار استمر أربعين يوماً، وكان عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين من الفتنة ويذكرهم بآيات الله، فلا يعبأون بقوله. وبينما هو على هذه الحال إذ ناشده رجل من الصحابة يدعى (نيار بن عياض الأسلمي) أن يخلع نفسه، فرماه أحد الذين كانوا يدافعون عن الخليفة بسهم أصاب منه مقتلًا. فاستاء الثوار وطالبوا بتسليم قاتله، ولما لم يصلوا إلى تحقيق غرضهم اقتحموا دار عثمان على أهلها.. وقتلوا الخليفة، وذلك في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة ٣٥هـ^(١).

وتقول الرواية إن المحاصرين تعجلوا الأمر وأحرقوا باب منزل الخليفة، فاستسلم عثمان للفداء وطلب من الذين يدافعون عنه أن ينصرفوا، وكانوا قليلين، فضربه الغافقي بن خريب العكي بحديدة كانت معه، وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت عليه زوجته (نائلة بنت

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، مرجع سابق، ص ٣٥٢ ص ٣٥٥ انظر أيضاً : الطبري ج٣، ص ٤١١، ٤١٤. كذلك ابن الأثير، ج٣، ص ٦٨ ص ٧٠.

الفرافصة) واتقت السيف بيدها فقطعت أصابع يدها، وضربه بعضهم بالسيف على عنقه.. ونهبوا كل ما في البيت، ثم أتوا بيت المال ونهبوه أيضاً وأعلنوا في المدينة خبر قتله.

قتل الخليفة عثمان، وأخلص الناس إليه خارج المدينة.. ومضت خمسة أيام على وفاته، واجتمع كثير من أهل المدينة وأتوا علياً وأخذوا يلحون عليه في قبول إمامة المسلمين وقد أيدهم في ذلك الثائرون ولكن علياً الذي كان يحرص على الخلافة من قبل أصبح الآن زاهداً فيها فلما عرضت عليه الخلافة في أول الأمر، قال دعوني والتمسوا غيري.. فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وما زالوا به حتى اضطر إلى قبول الخلافة خشية الفتنة.. وسارع كثير من أهل المدينة ببايعونه، وأبى مبايعته سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وأسامة بن زيد، وجماعة من الأنصار منهم : حسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري.. وقد بايع طلحة والزبير علي بن أبي طالب، كرهاً، بعد أن امتنع، حيث قام مالك بن الأشتر وسل سيفه، وقال لطلحة إن لم تباع أضرب بالسيف عنقك، فباع وباع ابن الزبير. وامتنع عن البيعة بعض من الصحابة، وبايعه بقية أهل المدينة إلا من هرب ولحق بالشام فلم يبايع.. ولما تمت البيعة، توجه علي بن أبي طالب إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليلقي خطابه السياسي باعتباره الخليفة الجديد. وجاء في خطابه : - (.. إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حراماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشدد بالإخلاص والتوحيد للمسلمين، والمسلم من سلم

الناس من لسانه ويده إلا بالحق. لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه^(١).

(١) جمال الدين سرور : مرجع سابق ص ٦٨ .